صلة الأدب بالحقيقة والواقع

وقديماً أخضع افلاطون الأدب أو الشعر لميزان الحقيقة فشالت موازينه فى نظره واستحق أن ينبذ وألا يدخل محترفوه جمهوريته المثالية . إن الحقيقة كائنة فى العالم، يتمثلها العقل فى صورة مجردة ، وتعينه الفلسفة على هذا التمثل. وتتحقق لتلك الحقيقة صور كثيرة مختلفة على الأرض ، يحققها الصناع ومن فى مرتبتهم . وأخيراً يأتى الشعراء ليصوروا هذه الصور فيخرجون صورة أخرى للحقيقة هى صورة الصورة أو هى الحقيقة بعد أن بعدت عن أصلها المجرد درجتين فى سبيل إخراجها . فلم كل هذا التعب والحقائق قد وجدت مجردة ومصورة ؟ وما الفائدة من تصور صور للحقيقة هى فى الدرجة الثانية ما دامت الصور الأولى أمام ناظرنا نراها ؟ لذلك أجلّ أفلاطون الفلسفة لأنها هى التى تصور الحقائق المجردة ، واحتقر الشعر لأنه يخرج لنا صوراً ناقصة لتلك الحقيقة المجردة . ويأليته يصور تلك الصور فى دقة وأمانة . كلا إن الشعر يدّعى لنفسه الحق فى أن يُخرج هذه الصور على نحو ما يريد ، ولا يطابق هذا النحو الواقع فى صدق وأمانة أبداً ، إنه دائما محرف مشوه .

وقام أرسطو يدافع عن الأدب أمام الفلسفة ويرد أستاذه فى استحياء عن هذه الدعوة التى حارب بها الشعراء وشعراء عصره خاصة . فأوضح فى كتابه الشعر أن الأدب أو الفن عامة لا يدّعى لنفسه تلك الغاية التى تدعيها الفلسفة لنفسها ، إنه لا يستكشف حقيقة ولا يميط اللثام عن خفى . إنه يعمل فى ميدان آخر يختلف كل الاختلاف . إنه ينقل الحقائق بطريقته لا ليصورها للناس فى أمانة ودقة ، فهو لا يريد لهم أن يتمثلوا تلك الصور ، وإنما يريد أن يصل بتلك الصور كما يرسمها هو إلى أن تهتز نفوس الناس لتلك الحقائق هزات جديدة فيتمثلوها أعمق مما تمثلوها وأصدق ، ويتأثروا بها فى مزاجهم وحياتهم إن أمكن. إن الشعر المسرحى كما يقول أرسطو لا يريد أن يصور الناس كما هم ، فتلك مهمة

التاريخ لكنّه يريد إما أن يصورهم شراً مما هم وذلك فى المسرحية الهزلية ، أو خيراً مما هم وذلك فى المأساة . ومن طريف ما يسرد برهانا على أن الشعر المسرحى بعيد عن أن يصور الناس كما هم ، زعمه أننا لا نتأثر بالناس الذين نصادفهم فى الحياة كما نتأثر بالأبطال الذين نراهم على المسرح . إننا نأسى لآلام البطل ونحزن لأتراحه ، ونفرح إذا فرح وننتشى لانتصاراته . والحياة لايمكن أن تمدّنا بهؤلاء الذين تظل عيوننا معلقة بهم نرقب حركاتهم فى شغف وننتظر أحكام القدر عليهم فى شوق ولهفة . إن أبطال المسرح قوم تلذ لنا حياتهم ، ولا تمدنا الحياة بمن تشغلنا حياتهم ولا تربطنا بهم صلات . إننا نشغف بأبطال المسرح لا لشىء إلا لجمال حياتهم التى يحيون ، ولطرافة ما يحدث لهم من أحداث بل لما يتصف به الأبطال وما يأتون به من أعمال عظام .

ترى أنخضع نحن الأدب اليوم لنفس هـذا الميزان فنفكر فى الحقيقة التى يصورها أدبنا الحديث ومقدار بعدها وانحرافها أو قربها وأمانتها لهذا الأصل الذى نصف ، لهذا الأصل الواقعى أو الأصل الفلسفى ؟ لقد شغلنا نقد الآثار الأدبية نفسها ، إن شغلنا شىء فى النقد ، عن تصور تلك النظريات العامة . وكما شغل أسلافنا بنقد البيت : ألفاظه ومعانيه وما يمكن أن يكون فيه من جديد أو قديم مكرر معاد ، فإن تعدّوا ذلك فللكلام عن الشاعر نفسه وما قد حدث له ، فقد شغلنا نحن أيضا بنفس هذا النوع من النقد وحده ، نقد الآثار فى أفق ضيق ، نقداً لا يعنينا أن نصفه الآن ، ولكن الذى يعنينا هو أننا لم نفكر بعد فى هـذه المسائل الفلسفية التى شغلت بال النقاد فى أوربا قديماً وحديثاً ، فجعلت أفق تفكيرهم النقدى والأدبى أوسع وأعمق ، وجعلت الأيام نقدهم جلالا وقوة .

إن هذا الموضوع وحده قد شغل من تأليف النقاد قديماً وحديثاً صفحات وصفحات كلها متعة وكلها تفكير نفّاذ عميق . لقد قال النقاد فيه كثيراً فى كل عصر كانت لهم فيه صحوة ، لايبغون بقولهم الوصول إلى حقائق حاسمة أو إلى وضع أسس ثابتة لأحكام النقد ، وإنما يبغون الكلام للكلام نفسه انه يفتح فى حد ذاته آفاقا واسعة من التفكير الفنى الخصب ، ويوحى إلى الأدباء والمتأدبين على السواء تأثيرات جديدة وإحساسات لم يألفوها . وأخيراً وهـذا هو الأهم إنه يلقى على الآثار الأدبية قديمها وحديثها أضواء وظلالا ليس لقارئها بها عهد

فيرى ما لم ير ويفطن لما لم يفطن إليه من قبل ، وإن يكن قد مرّ به النص الأدبى مرّات ومرّات .

ولقد عقد الكاتب الانجليزى المعاصر ألدوس هكسلى Aldous Huxley فصلين فى كتابه « الموسيقى فى الليل » عن علاقة الأدب بالحقيقة هما من أجسن ما كتب حديثاً فى هذا الموضوع .

أما الفصل الأول فقد أبان فيه الفرق بين الأدباء فى القدرة على الكشف عن الحقيقة كاملة ، وخرج من ذلك أن كل أديب مستحق أن يُقرأ لا بد كاشف عن جزء من الحقيقة ولكن الحقيقة الكاملة لا يكشف عنها إلا كاتب عبقرى ويجدر بنا منذ الآن أن نفرق بين الحقيقة التى يتحدث عنها هكسلى ، وتلك التى كان يتحدث عنها أفلاطون وأرسطو . فهذان أرادا الحقيقة الفلسفية أو الحق وذاك يريد الواقع ليس غير . وضرب للحقيقة أو للواقع كاملا غير محرف مثلا طريفاً من أوديسا هوميروس . فلقد جاء فى الكتاب الثانى عشر من الأوديسا أن البطل أوديسيوس ما كاد يرفع يده عن مؤخرة السفينة ويدير ظهره حتى رأى ستة من الأبطال أعوانه وأصدقائه يرفعهم غول الساحل من السفينة فى الهواء ليدخل بهم مغارته ويلتهمهم . نعم ! لقد رآهم بعينه ستة من خيرة الرجال والأبطال يستصرخونه وينادونه ويستغيثون به ، وظل أعوانه الآخرون فى السفينة ينظرون فى خوف ويأس حتى توارى الستة عن أنظارهم فى مغارة الغول . ويقول أوديسيوس إن هذا المنظر كان أبشع ما صادفه فى رحلاته عبر البحار والمضايق وأفظعه . ولكن الخطر زال ونزل البطل وأعوانه إلى الشاطىء الصقلى وأخذوا يعدّون عشاءهم ، يقول هوميروس يعدّون الطعام فى صنعة وإتقان ، وينتهى الكتاب الثانى عشر بقول الشاعر : « لما سدوا حاجات الجوع والعطش ذكروا إخوانهم الأعزاء فبكوا عليهم ، ثم غلبهم النوم وهم ما يزالون يبكون » . فهؤلاء الأبطال الأعزاء على إخوانهم قد التهمهم الغول على مرأى منهم ومسمع ، ومع ذلك لما نزلوا إلى الشاطىء أخذوا يُعدّون طعامهم و يُعدّونه فى إتقان . فالإنسان إذا اعتاد إتقان عمل آلى فلا بدّ هو متقنه فى أشد حالات الحزن . ثم أكل الأبطال عشاءهم . فلما شبعوا ذكروا إخوانهم فبكوا . إن الحزن بالنسبة للجائع ترف لا يقوى عليه . إن الجوع والعطش أقوى أثراً فى الجسم من الحزن مهما يكن بالغاً . وللنوم على المسافرين المتعبين سلطان . إنهم

قد عادوا من رحلة ملئت أهوالا وأخطاراً، فإذا النوم يغلبهم، وإذا دموعهم تغرق فى بحر من النوم القوى الجبار. هذه هى الحقيقة الكاملة كما يقول هكسلى: حاجات البدن المادية ثم ترف العواطف والاحساسات. إن البكاء على الأبطال والأخوان وإن ماتوا مستصرخين يحاولون الخلاص من قبضة أسنان الغول لا يقوى عليه جائع متعب حتى يشبع، ولا بد من الراحة حتى يستطيع الإنسان أن ينعم بترف البكاء على الأخوان. إنهم قليلون هؤلاء الذين يستطيعون أن يصوروا الواقع كاملا كما صوره هوميروس.

ويتدرج هكسلى من ذلك إلى أن أنواعاً بعينها من الأدب تلائمها هذه الحقائق الكاملة، بينما أنواع أخرى تأبى إلا الحقائق المصفاة الممتازة كما يسميها هو. ففى قصة أو ما يشبه القصة من ملحمة شعرية أو نحو ذلك يستطيع الشاعر العبقرى أن يصور الحقيقة كاملة، ولكن فى المأساة حيث حدود المسرح والزمن والنظارة لا يستطيع المؤلف أن يصور الواقع كاملا. إن هؤلاء الأبطال الذين فقدوا إخوانهم لو أنهم كانوا أبطالا على المسرح لاكتفى الشاعر بعد أن قص اغتيال الغول لأخوانهم أو صوره ثم جعلهم يبكون بكاء مرًّا، بكاء يليق بالأبطال باكين ومبكياً عليهم بكاء يليق بالحادث الفظيع ويؤثر فى النظارة أقوى تأثير وأسرعه بل أعنفه. ولكنهم لو تركوا على المسرح يتقنون إعداد عشائهم ثم يملأون بطونهم وبعد ذلك يذكرون الأخوان لا نصرف النظارة عنهم وسخطوا على شراهتهم وذموا بلادة حسهم ولم يتأثروا بهم فى شىء. إن المأساة من الأنواع الأدبية التى تحتاج إلى كل الوسائل ليكون التأثر بها عنيفاً سريعاً. لذلك نراها تترفع دائماً عن الواقع العادى، تترفع عن الحقيقة كاملة لتذكر حقيقة مركزة مصفاة، محرفة ولكنها قوية، مبالغاً فيها ولاشك ولكنها سريعة التأثير. إن أبطال المسرح قوم كالبشر ولكنهم فوق مستواهم، هم كالبشر كما يود البشر أن يكونوا، مثاليون فيما يأتون ويحسون، فإذا نزلوا لمستوى الإنسان العادى فهم لا ينزلون إليه كثيراً مهما كان اتجاه العصر أو اتجاه المؤلف نفسه.

ويختم هكسلى هذا الفصل بأنه يلاحظ أن كتّاب اليوم يميلون فى تشبعهم بحب الحق والحقيقة إلى تصوير الحقيقة الكاملة أو الواقع بحذافيره. وهم بذلك يبعدون عن جوّ المأساة الحق. ولذلك ضعف الفن المسرحى فى هذه الأيام ضعفاً ظن كثيرون من أجله أن المسرح يُحْتَضَر. ولكن الفن المسرحى لن

يموت أبداً . إن الإنسان محتاج إلى النوعين من تصوير الحقيقة أو الواقع ، محتاج إلى التصوير التفصيلى الدقيق ، وإلى التصوير المركز المصفى . هو محتاج إلى الحقيقة المثالية وإلى الحقيقة الواقعة . أما الأول فلأنها وحدها بعنفها وقوة تركيزها تستطيع أن تهز أعصابه هزة قوية لتحدث هذا الاتزان فى العواطف الذى لاحظه ارسطو فى كتاب الشعر ، وجعل مهمة المأساة تكاد تكون مقصورة عليه : هذا التصريف للشعور والإحساسات وهذا التطهير لها فتتجدد حيوية الإنسان العصبية بعد أن تصرف منها مافسد وتقوى فيها ما صلح فاتزنت أعصاب الجسد وأحس الإنسان لذلك الاتزان راحة هادئة هى ما يبعثه المسرح أو ما يجب أن يبعثه فى نفوس النظارة . وأما احتياجه إلى الحقيقة الواقعة فلأنها هى التى تصور له الحياة على حقيقتها وهى التى تضيف إلى إحساسه بالحياة إحساساً أدق وأعمق ، وتجعل حياته الحسية غنية بفيض مما يحس هو فى الحياة وما ينقل إليه الشعراء من إحساسهم لها أيضاً .

وأما الفصل الآخر الذى نجده فى نفس الكتاب فقد حاول فيه هكسلى أن يقسم الحقيقة البينة الواضحة إلى قسمين : حقيقة كبرى وحقيقة تافهة . يقول : ليست كل الحقائق البينات حقائق كبرى أو هامة . فالحياة الإنسانية فانية ، تلك حقيقة بديهية بينة . ومدينة نيويورك مزدحمة بناطحات السحاب والسكان ، تلك أيضاً حقيقة بديهية بينة ، ولكن الأولى حقيقة هامة أو كبرى بينما الأخرى حقيقة تافهة . والأدب لا يعنى إلا بالحقائق الكبرى أى الحقائق التى لها أثر فى حياة الإنسان وإحساسه . فكون الضوء يسير كذا ميلا فى الثانية ، وكون الملكة ڤكتوريا حكمت كذا عاماً ، كل هذه الحقائق على ما لها من خطر يستطيع الانسان أن يعيش وأن يموت فلا يحس لحقيقتها أى أثر فى حياته . فلقد عاش الناس قروناً قبل أن يعرفوا عن الضوء إلا بريقه فما ضرهم ذلك فى شىء ولا جعلهم يفكرون فيه . ولكن الإنسان منذ خلق أو منذ مات الإنسان الأول قد عرف أن الحياة فانية ، وأثرت تلك الحقيقة فى حياته أيما أثر ، وهى ما تزال تؤثر فيه إلى اليوم .

يقول هكسلى : ولكن أدباء فرنسا فى هذا العصر الحديث مجّوا اعتماد الأدب على هذه الحقائق الكبرى ، وتعمّد الكتاب إظهارها فى صور واضحة سافرة لتؤثر فى الجماهير أثرها ، فانصرفوا عنها تجديداً إلى تصوير الحقائق التافهة التى لها

أثرها الوقتى السريع . وتبع أدباء فرنسا أدباء أوربا عامة فى هذا ، إما لأنهم خضعوا لنفس المؤثرات وإما لأنهم أحبوا ما كتب أدباء فرنسا المحدثون فقلدوه. ولكن هذا الاتجاه خطر على الأدباء لأنه اتجاه نحو إرضاء ميول الشعب على حساب الفن . لقد مج الشعب اللعب على هذا النغم ، مجوا سماع الحقائق السافرة تلقى إليهم واضحة مبالغاً فيها ، والشعب دائماً ملول يريد جديداً . وجبن الأدباء عن إظهار هذا القديم الأزلى فى ثوب شيق جذّاب خوفاً من الاخفاق لصعوبة المهمة التى يواجهها الأديب فى ذلك . وظهر هذا الجبن واضحاً فى فرارهم من الشبح المخيف شبح الحقائق البديهية البينة السافرة . وجعل الأدباء يقولون لأنفسهم مسوّغين عملهم إن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت ، فرجل اليوم غير رجل القرون الماضية لكثرة ما قد خضع له من مؤثرات عنيفة جارفة فى هذا القرن الأخير . ولكن هكسلى يسأل أحقاً قد تغير الإنسان ؟ أم إن هذه الحقائق لا زالت وحدها هى الحقائق التى يجب أن يعتمد عليها الأدب الذى يزعم لنفسه الخلود . واجهوا الوحش ولا تفرّوا منه أيها الأدباء . واجهوا هذه الحقائق التى كررت وبولغ فيها حتى مل الجمهور سماعها ، وقولوها فى نغم جديد وصوت آخر وروح حىّ تنشئوا أدباً خليقاً بالخلود . أما الفرار من الميدان والاعتماد على مزاعم كاذبة فهذا هو السر فى كثرة هذا الأدب التافه الذى يعيش عليه الناس فى هذا العصر طلباً للجديد ولو كان الجديد تافهاً .

أيكون هكسلى على حق ؟ أيكون هذا التعليل هو التعليل الصحيح لما نحس فعلا من قلة الآثار الأدبية الخليقة بالخلود فى هذه الأيام ؟ إن الأحكام على الأدب المعاصر قلما كانت أحكاماً صائبة . فلنترك للزمن حكمه على هذا الأدب الحديث الذى نقرأ ولكن يكفى هكسلى أنه جعلنا نقف وسط اندفاع الدائرة لنتساءل ، فلعل فى تلك الوقفة استجماما ولعل فيها نظرة إلى الماضى تفيد فى المستقبل . بل يكفيه أنه جعلنا نفكر فى موضوع جديد ؛ فليس أغنى للأدب من التفكير فى موضوع جديد .

مسهير القلماوى